جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ

أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

الدولة الرستمية (160-296هـ/676-909م)

تمهيد: بعد الإنهزامات المتوالية التي منيت بها جيوش الدولة الأموية في بلاد المغرب الإسلامي خلال عصر الولاة، صعبت عليها مأمورية استرجاع ما ضاع منها من تلك البلاد، خصوصا وأن أتباع مذهبي الصفرية والإباضية قد ازداد تعلقهم بتلك الأرض وتمسكهم بها أكثر من أي وقت مضى، ثم إنّ ذلك التجاور فيما بينهما في نفس الإطار الجغرافي قد يخلق هو الآخر نعرات وصراعات رغبة في الإنفراد بحكم بلاد المغرب الإسلامي، فقد استفاد دعاة الأباضية من الأحوال المضطربة لنشر مذهبهم على نطاق واسع، وقد ساعدهم على ذلك أن كثيرا من عامة البربر رفضوا سلوك الصفرية ولم يكونوا راضين عن التطرف والتشدد، بحيث كانت ثورات الصفرية شرا مستطيرا على البربر ومصالحهم، وقد بلغ هذا الشر مداه عندما استولت قبيلة "ورفجومة" على القيروان بقيادة أميرها "عاصم بن جميل" وادعى النبوة والكهانة، وأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الآذان.

1- إنتشار دعوة الخوارج الإباضيين:

إن هذه الممارسات باعتبارها كوسائل ودلائل تارخية؛ تبرر انتشار المذهب الإباضي في بلاد المغرب الإسلامي، بحكم أنه أقرب المذاهب الخارجية إلى المذهب السني وحصوله على حضوة بين سكان المنطقة، وعلى هذا الأساس نجح دعاة الإباضية في تنظيم صفوفهم من جديد وتولية مهمة تأسيس دولة مستقلة في بلاد المغرب إلى حملة العلم الخمسة: (أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، عبد الرحمان بن رستم الفارسي، عاصم السدراتي، أبو داود القبلي النفزاوي، إسماعيل بن درار الغدامسي) الذين درسوا أصول المذهب الإباضي في البصرة على يد داعية الأباضية الأكبر "أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة" ويذكر الشماخي أن رجال الإباضية تشاورا على تولية أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إماما لهم.

استولى أبو الخطاب المعافري على طرابلس بعد مبايعته واتخذها مقرا له، وما إن انتهى من تنظيم شؤنها توغل أكثر في بلاد المغرب حيث توجه إلى القيروان بعدما وصلته أبناء عن الفضائع التي ترتكبها قبيلة "ورفجومة" فنظم شؤونها وقبل توجهه إلى المغرب الأوسط حاملا معه الفكر الإباضي، رشحت أئمة الإباضية وعامة المجتمع شخصية عبد الرحمان بن رستم لتولية شؤون القيروان، وما كانت تعيشه بلاد المغرب الإسلامي من تطورات ومستجدات لم تكن بمعزل عن التطورات الحاصلة في بلاد المشرق، حيث أن الدولة العباسية حلت محل الدولة الأموية، وأصر أبو جعفر المنصور هو الآخر على مواصلة المحاولة في استرجاع البلاد المفتوحة لسلطته، فقد أمر "محمد بن الأشعث" بتحريك جيشه لملاقاة فلول الإباضية في موطنهم، وفي سنة (144هـ/761م) تمكن "إبن الإشعث" من هزيمة أبو الخطاب وجيشه وانتهت المعركة بمقتل إمام لإباضية ليبدأ بعد ذلك عهد جديد.

2- تأسيس الدولة الرستمية:

إن اختيار عبد الرحمان بن رستم للمغرب الأوسط كقبلة لتأسيس للدولة الرستمية لم يكن عبثيا أو اعتباطيا، فبعد الكارثة التي حلت بالإباضيين وخيمت بظلالها القاتمة عليهم، كان للعامل الجغرافي البعيد جدا عن مراكز الدولة العباسية أحد أهم الأسس التي يجب دراستها والتركيز عليها، حيث أن نجاح الإباضية في منطقة يسودها المذهب السني أصبح ضربا من الوهم يكاد أن يحكم على مشروعهم بالموت قبل ميلاده، لذلك كانت تاهرت في المغرب الأوسط وفق منظورهم هي المكان الطبيعي الذي يكفل لهم غايتهم تلك.

لقد لجأ عبد الرحمان بن رستم إلى سفح جبل "سوفجج" وكان هذا الجبل موطن قبائل (لماية، لواتة، هوارة)، وهي قبائل كانت قوية الصلة بالمذهب الإباضي، ومباشرة بعد أن بلغت أصادء عبد الرحمان بن رستم ومن معه من الإباضيين اجتمع عنده ستون شيخا من شيوخ الإباضية من طرابلس جبل نفوسة ووفدت عليه أعداد هائلة من النفوسين.

3- بناء تاهرت عاصمة الدولة الرستمية:

رأى عبد الرحمان بن رستم بعد أن بويع بالإمامة أن يتخذ لدولته الفتية عاصمة يباشر منها مهامه، شأنه في ذلك شأن الدول المستقلة الأخرى وسيرا على خطاهم ومناهجهم في تأسيس الدول، وكان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الأمن والرخاء، وبعد مشاورة أهل العلم والخبرة بالأرض في اختيار وقع جغرافي لذلك وقع اختيارهم على موضع يسمى "تاهرت" وقد جاء اختيار هذا الموقع وليد الظروف الصعبة التي واجهت قيام الدولة الرستمية ومراعاة للمميزات والخصائص الآتية: أولا: أنها بعيدة عن خطر العباسيين بحيث يصعب وصولهم إليها، ثانيا: تقع في منطقة داخلية منطوية على نفسها، محاطة بقبائل موالية للمذهب الإباضي منها: (لواتة، هوارة، مطماطة، زناتة، مكناسة)، ثالثا: الموقع الإستراتيجي الإقتصادي لتاهرت الذي يسمح لها بأن تكون حاضرة اقتصادية، بحيث أنها تتوسط التل والصحراء وتقع ضمن شبكة الطرق التجارية بين الغرب والشرق والشمال والجنوب.

أما تخطيط تاهرت فقد جرى على النحو الذي اتبع في بناء المدن الإسلامية الكبرى، بحيث تساعد على انصهار أفراد المجتمع واندماجهم وتكوين مجتمع مركب، وبذلك اختط الإباضية المسجد الجامع الذي يعد أهم ركائز العمارة الإسلامية أوحد الأسس الهامة في تشييد المدن والعواصم، واستعانوا ببنائه بأخشاب شجر الشعراء المنتشر في المنطقة، وحول المسجد انتشرت الدور والقصور والبيوت والأسواق والحمامات والفنادق، وأحاطو المدينة بسور محكم شيد من الصخر، وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ بناء تاهرت، فابن خلدون يرجع تأسيسها إلى سنة 144هـ/761م أي في السنة التي فر فيها عبد الرحمان بن رستم من القيروان إلى المغرب الأوسط، بينما إبن عذاري فيرجعها إلى سنة 161هـ/778م، ومن هنا نجد أن رواية ابن عذاري هي الأقرب إلى الحقيقة وفق ما لدينا من الدلائل التاريخية وتراتبية الأحداث.

4- نظام الحكم:

اتسم نظام الحكم في مطلع قيام الدولة بالبساطة، فقد اتخذ حاكم الدولة لنفسه لقب "إمام"، وبمقتضى ذلك أصبح رئيس الدولة مصدرا لجميع السلطات دينية كانت أن سياسية، ويبدو أن اختيار الإباضية لذلك اللقب كان نابعا من تأثرهم بنظية الشيعة عن الإمامة الظاهرة والإمامة المستترة، وربما كان سلوك الإباضية هذا المسلك يوحي بتأثرهم بالتنظيمات السرية للدعوة الشيعية في المشرق، كما أن الإباضية كانوا يختارون الإمام وفق شروط معينة منها: يجب أن تتم له البيعة علنا، يجب أن يكون من حملة العلم، ألاّ قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل، وقد شهد الفكر السياسي للخوارج تطورا ملحوظا حين تحول تعيين لإمام أو الحاكم من مبدأ الانتخاب العام إلى نظام التوريث باستخدام عبد الرحمان بن رستم أسلوب عمر بن الخطاب ﷺ، وهذا يعني التغلب على الطابع الديني في نظام الحكم الرستمي وتحوا الإمامة إلى سلطة مركزية أشبه بالملكية المطلقة.

أما من الناحية الإدارية فإن الدولة الرستمية قد قسمت إلى عمالات في شرق الدولة وغربها، يحكمها الولاة الذين تسند إليهم مهمة جباية الضرائب، واعتمدوا على نظام السجلات وتأمين الوثائق التي استمدت جذورها من الفكر الفارسي، كما أنشأوا نظام الشرطة للحفاظ على الأمن والاستقرار، ووضعوا نظاما قضائيا يعتمد على أحكام وشرائع المذهب الإباضي.

لقد شهدت الدولة الرستمية وخاصة عصمتها تيهرت تعايشا يكاد يكون استثنائيا في تاريخ المغرب الإسلامي، فقد فتحت رحابة صدرها لكثير من فئات المجتمع، وقصدتها الأجناس على اختلاف أنماطهم الفكرية وانتماءاتهم، فعاش فيها اليهود والنصارى مع الإباضين جنبا إلى جنب، استقر فيها كثر من العجم والعرب والسودانيين والأوروبيين من صقلية وإيطاليا والأندلس والجزر الأخرى القريبة من المغرب، وكانوا يتوافدون عليها للتجارة أو العمل أو الإقامة، كما قصدتها بعض الطوائف الإسلامية من المشرق فاستوطنها الكوفيون والبصريون من أهل العراق والخراسانبون والمصريون وغيرهم.

5- الحياة الفكرية:

كانت الدولة الرستمية دولة الحرية الفكرية وحرية الإعتقاد وحرية الكلام في حدود الدين الإسلامي، وكان إحترام المذاهب الإسلامية أحد أسس ذلك التعايش حيث عرفت الدولة الرستمية وجود المذهب المالكي والمعتزلي والصفري ومذهب أهل الكوفة من العراق وبعض المذاهب الموجودة في المشرق، وكانت المناظرات القائمة على الحجج والبراهين والمعقولية هي ما تطبع الحياة العلمية بين

مختلف المذاهب والتوجهات الفكرية، ويروي لنا ابن الصغير المالكي الذي عاش في تيهرت أيام الدولة الرستمية واصفا ذلك: "وكانت مساجدهم عامرة، وجامعهم يجتمعون فيه، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا، إلا أن الفقهاء تباحثت فيما بينها، وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيه عاقبتها (كذا)، ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى خلق غيرهم كان سبيله كذلك".

خلاصة: دامت دولة الرستميين قرنا ونصف من الزمن تقريبا، وقد سقطت دولتهم نتيجة تعاظم قوى الدولة الفاطمية الشيعة، التي اجتثت كل الدول القائمة في عصرها سنة 296هـ/909م، وكان الذي قضى على دولتهم هو أبو عبد الله الشيعي؛ الذي مر في طريق عودته من سجلماسة بتاهرت وخربها وقضى على الوجود الرستمي، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لإفريقية، وعندما غزت العرب الهلالية إفريقية والمغرب في القرن 5هـ/11م زال المذهب الإباضي وحل محله المذهب السني، ولم تبق من الفرق الإياضية إلا في نواحي بني مزاب في غرداية.

الدولة الرستمية والدول المجاورة لها

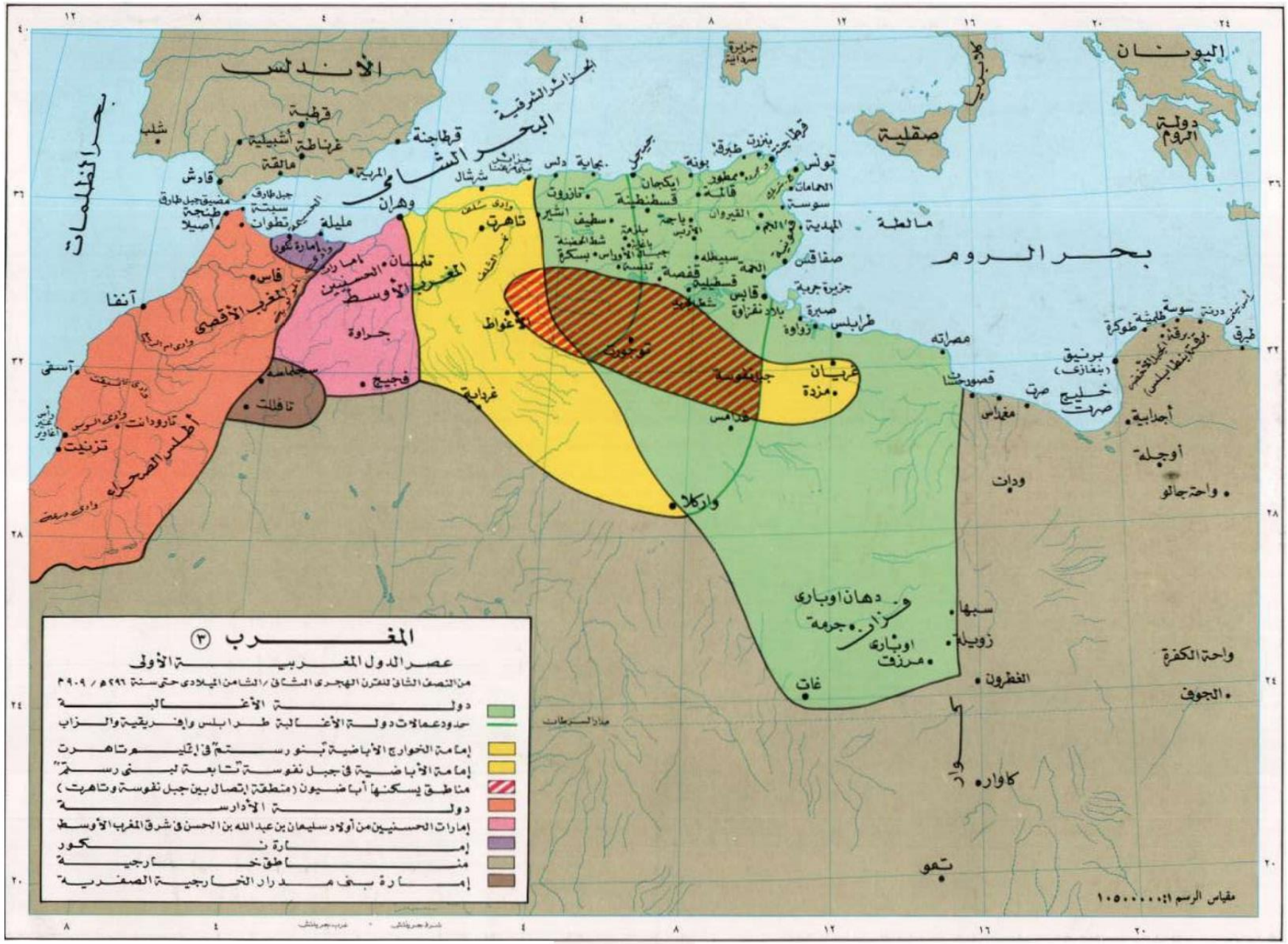
المغرب ③
عصر الدول المغربية الأولى
من النصف الثاني للقرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي حتى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م
دولة الأغالبة
حدود عمالات دولة الأغالبة طرابلس وإفريقية والزاب
إمامة الخوارج الأباضية "بنو رستم" في إقليم تاهرت
إمامة الأباضية في جبل نفوسة "تابعة لبني رستم"
مناطق يسكنها أباضيون (منطقة إتصال بين جبل نفوسة وتاهرت)
دولة الأدارسة
إمارات الحسنيين من أولاد سليمان بن عبد الله بن الحسن في شرق المغرب الأوسط
إمارة نكور
مناطق خارجية
إمارة بني مدرار الخارجية الصفرية
الأندلس
البحر الشامي
بحر الظلمات
بحر الروم
اليونان
دولة الروم
صقلية
مالطة
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
الأغواط
تلمسان
تاهرت
وهران
فاس
آنفا
تزنيت
أطلس الصحراء
تافللت
سجلماسة
فجيج
جراوة
غدامس
وارگلا
غريان
مزدة
جادو
نفوسة
طرابلس
زواوة
قسطيلية
قفصة
تبسة
القيروان
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
جربة
مصراته
قصور حسنا
مغراس
خليج صرت
صرت
برنيق (بنغازي)
طوكرة
سوسة
طبرق
أجدابية
أوجلة
واحة جالو
ودان
سبها
زويلة
جرمة
مرزق
غات
الغطرون
واحة الكفرة
الجوف
كاوار
تبو
مقياس الرسم ١:١٥٠٠٠٠٠٠